المبحث الثانى

عاطفة الحب فى الشعر الرومانسى

متى سمعنا وصفا لحالة من حالات الحب بأنها " رومانسية " تبادرت إلى أذهاننا معان وخواطر كثيرة ، منها : رقة هذا الحب وشفافيته وخلوه من كل شائبة تقاعه ، فضلا عن إخلاص المتحابين وصفاء نفسيهما ، واستبدادهما للفؤاد ولو بذماء الروح . ولا تتداعى هذه المعاني والخواطر إلى أذهاننا وتستقر بين طيات نفوسنا إلا بسبب ما نطالعه من روائع الأدب الرومانسي ، قصصه وشعره ، إبداعا كان أو نقلا عن لغة أخرى . فإذا كانت عاطفة الحب قد شغلت - كما يذكر الدكتور محمد غنيمي هلال - كثيرا من الأدباء على مر العصور ، وكانت موضوعا شيقا مفضلا لدى كتاب القصة والمسرح ، فإنها لم تزدهر إلا في ظل الرومانسية ، وذلك لأن الرومانسيين رفعوا منزلة الحب وجعلوه فضيلة أو طريقا موصلة إليها ، بعد أن كان ينظر إليه على أنه هوى من الأهواء ، أو مجلبة للشرور ، ولا يوصف إلا للتحذير منه [1] .

لهذا شغل الحديث عن الحب جانبا هاما في الأدب الرومانسي ، وعبّر الأدباء الرومانسيون من خلال هذا الحديث - كما يذكر الدكتور محمد غنيمي هلال - عن فلسفتهم الخاصة ومعتقداتهم . وكان من نتائج الاهتمام بهذه العاطفة والرفع من شأنها ، أن احتلت المرأة في الأدب الرومانسي مكانة رفيعة لم تظفر بمثلها من قبل ، وصلت - كما يذكر الناقد - إلى حد تقديسها والإشادة بها والخضوع لسلطانها ، لا عن غوابة وضعف وإنما لصدق في العاطفة وإخلاص في الميل ، حتى إن بعضهم صوّرها مكا هبط من السماء لتطهير قلوب الرجال ، والارتقاء بعواطفهم وابتعاث العزم في نفوسهم . [2]

وإذا قارنا بين خصائص الحب الرومانسي وخصائص الحب العذري ، وجدنا تطابقا عظيما ، فكلا الفريقين يتوجه بعاطفته إلى الروح لا إلى الجسد ، ينشد الثابت لا المتغير ، الجوهر لا العرض الحائل . وكلا الفريقين يرى الحب ضرورة للنفس من أجل أن تحيا وتتجدد ، ضرورة للإنسان ليؤكد من خلاله ذاته ، كما

يؤكده من خلال العمل ومشاركته أبناء جنسه ما يضطربون فيه من سبل العيش. والعذريون والرومانسيون ، يتوفّرون جميعا على معان وقيم نفسية واحدة ، منها إحساس المحب بقدريّة حبه ، فمحبوبه قدره وحظه الذى لن يصيب في الدنيا غيره . وماكان قدرا حتما فلا يمكن دفعه أو الهرب منه ، ولهذا فمن الخير للإنسان أن يستسلم لهذا القدر مهما تقلّب به وقسا عليه .

كما أن المحبوب يمثل لهم جميعا عالما كاملا ممتلئا ، حوى من دواعى السعادة كل شىء ، فلا مطلب لهم في وجوده سواه . ولأنهم يحسون تجاهه هذا الإحساس ، يبيتون على قلق ، بنفوس يستبد بها الخوف أكثر مما يهزّها الرجاء وقلوب يحطمها اليأس أكثر مما يحييها الأمل ، يتوجسون الفراق وهم على لقاء، فإذا ما صدع الفراق شملهم برحيل أو موت ، شمل أنفسهم خواء كامل جعلهم يستعذبون الموت ويستعجلونه . والفريقان لا يقران فى حبهما حكما لعقل أو شرع يُسكت صوت الحب الصارخ في أعماقهما أو يضعف من قوته ، بل يذهبان إلى أبعد من ذلك فيريان أن ماكان من الشرع وأحكام العقل مخالفا لفطرة النفس في عاطفة الحب ، فهو جور وظلم .

وهذا التطابق الشديد بين مايراه الباحث هنا وهناك ، يجعله وهو يتكلم عن العشاق الرومانسيين ، يحس أنه يصف أشواق العذريين وطباعهم ومسلكهم فى الحياة ، حتى يصير العذرى فى نظره رومانسيا ، ويصير الرومانسى فى نظره عُذريا . ومن ثم كانت هذه الحالة من الحب الروحى ، حالة فردية ذاتية لا ترتبط بمكان ولا بعصر ، وإن كانت ظروف المكان والعصر تساعد على بروزها ، بقدر ما فى هذه الظروف من عوامل تهز النفس وتساعد على إطلاق مكنونات الباطن .

وبعد فالدارس يخرج من مقارنته بين التيارين العذرى والرومانسى بنتيجة واحدة ، مقتنعا تمام الاقتناع ، بأن الحب الرومانسى هو الصورة الحديثة

للحب العذرى ، وأن تراتيل العشاق الرومانسيين رجْع لصبابات العذريين وهذا الشيء لا يحسه الدارس مطلقاً فى شعر المحافظين كما أسلفت القول . فما كان يظهر فى شعرهم من سمات الحب العذرى ، أصداء متفرقة وومضات خفية طارئة نتصيّدها من هنا ومن هناك ، فلا تمثل طابعاً غالبا ، أو تيارا تلاحق موجاته وتتدافع على نحو ما نجد فى الشعر الرومانسى .

الحب ضرورة نفسية

لعل أول ما نستهل به حديثنا عن الحب الرومانسى ، بيان نظرة الرومانسى للحب وإحساسه به ، بوصفه مطلبا هاما ، بل ضرورة من ضرورات الحياة للنفس البشرية . فحاجة النفس إليه لا تقل عن حاجتها إلى الغذاء والهواء إن لم تزد عليها ، فبدون عاطفة الحب تتداعى أركان هذه النفس وتقل قدرتها على مجابهة الحياة ، وعلى النضال من أجل البقاء والاستمرار . يصف أبو القاسم الشابى ما يُحرّك به الحب نفس الإنسان من هزات السرور ، وما يفتح عليه عينيه من آفاق تفيض بشرا وإشراقاً فيقول :[٣]

الحب شعلة نور ساحرٍ هبطت ... من السماء فكانت ساطع القلقِ
ومزّقتْ عن جفون الدهر أغشيةً ... وعن وجوه الليالى بُرقع الغسقِ
يطوف فى هذه الدنيا فيجعلها ... نجما جميلا ضحوكا ، جِد متّلقِ
لولاه ما سُمعتْ فى الكون أغنيةٌ ... ولا تألّف فى الدنيا بنو أُفقِ
الحب غاية آمال الحياة ، فما ... خوفى إذا ضمنى قبرى ؟ وما قلقى؟!

وهذا كلام قد يؤخذ على أنه وصف لتأثير الحب بمفهومه العام المطلق ، لكن حديث الشاعر عن الحب فى إطاره المحدد ، بوصفه عاطفة خاصة تجمع بين الرجل والمرأة ، كثير ومتشعب وأقوى فى بيان هذا التأثير نبرةً . يقول فى "صلوات فى هيكل الحب" :[٤]

أنت ما أنت ؟! أنت فجر من النور تجلّى لقلبى المعمود
فأراه الحياة فى مُونق الحسن ، وجلّى له خفايا .... الخلود
أنتِ روح الربيع تختال فى الدنيا ، فتهتزّ رائعات الورود

ويسترسل فيها كاشفا المزيد مما يحسّه من تأثير هذا الحب على نفسه :

كلما أبصرتك عيناى تمشين بخطو موقّع كالنشيد
خفق القلب للحياة ورف الزهر فى حقل عمرىَ المجرود
وانتشت روحى الكئيبة بالحب وغنّت كالبلبل الغرِّيد

ويصف الشابى فى "أراك" ، ما تحدثه رؤية محبوبته من تجديد آماله وإضاءة ما أعتم في نفسه [٥]:

أراك فأخلق خلقا جديداً كأنّى لم أبلَ حرب الوجودْ
ولم أحتمل فيه عبئاً ثقيلاً من الذكريات التى لا تبيدْ
وأضغاثِ أيامىَ الغابراتِ وفيها الشقىَ وفيها السعيدْ

ويمثل هذا الكشف ، راح إبراهيم ناجى يتحدث عما يحدثه الحب فى نفسه من نشوة ، تلغى الفوارق بين الموجودات وتزيل تناقضها ، فتتوحّد أمام عينيه فى كُلّ واحد جميل :[٦]

أحب أجل أحب ، كأن نبعاً سماوياً تفجّر فى دمائى
لقد طاب الوجود بحالتيهِ شقائى فيكِ أجمل من هنائى
وليلى فيك أحسن من نهارى وصبحى فيك أجمل من مسائى

ويؤكد هذا الإحساس فى مواطن أخرى كثيرة من شعره ، منها قوله :[٧]

ذلك الحب الذى علّمنى أن أحب الناس والدنيا جميعا
ذلك الحب الذى صوّر من مُجدب القفر لعينىَ ربيعا

وكان العقاد من أكثر الشعراء حديثاً عن أهمية الحب فى حياة الإنسان ، فهو يجدد نظرته ، ويقوى من عزمه على اقتحام الصعب والصمود فى وجه الخطب . ولهذا راح يبكى حبًّا له مات ، ويصف ما استلبه هذا الحب الضائع من قواه الروحية :[٨]

كنتُ أرجوه ليومى كـــلّما ... عزّنى فى مطلع الشمس غداهْ
كنت أرجوه لليلى كـــلّما ... لجّت الحيرة بى ، تحت دجـاهْ
كنت أرجوه لأمسى ، لغـــدٍ ... رب أمس لكَ ، لا ترجو سـواهْ
للأسى يُسعِد ، للخطب يَقِى ... للمُنى ، مَنْ ذاقها باع مُنـاهْ
فتولّى ، رحمة الله عـــلى ... أملٍ لاح ، ولم يبلغ مـــداهْ

فقد كان هذا الحب رجاءه الوحيد حين يُطبق اليأس على نفسه ، وكان سِنانه الذي يصول به ودرعه التى يتقى بها ، وكان على الجملة كل ما حازه فى دنياه واذخره للعصيب من أحوالها . ونرى العقاد فى موضع آخر يقارن بين الحب والمجد ، فيرجّح كفة الأول على الثانى عند الاختيار :[٩]

هـــو الحـب الذى يعـمُر هـذا القلبَ لا المجدُ
مكـــانُ المجـــد لا يفتـــأ يخلو حين .. يمتـــدُ
إذا ما قيل مملـــوءٌ ... إذا هو فارغٌ بَعْدُ
فعش بالوُد فى قفرٍ ... يعـمّر قلبَك الودُّ

وهو يعنى بحديثه الحب فى معناه الخاص قبل العام . وللعقاد حديث آخر كثيـر ، عـمـا يُحدِثه الحب من تجديد أو إعـادة خلْق لنفس المحب ، حتى إنه ليستبدل بالطبع ضده ونقيضه [١٠].

ويصف على محمود طه ما يمد به سلطان الحب النفس من قوى ، تدفعها إلى المخاطرة وإلى إنجاز أعمال تعدّ من الخوارق ، حتى إنه ليخوض بالمحب غمار

النهر ليبلغ محبوبته على الشاطىء الآخر ، لا يبالى بما يتهدّده ، وكأن صفحة النهر قد استحالت تحت قدميه ، إلى أرض لينة ممهدة :[١١]

مضيتُ كأنى على مـائـه	أنيـلُ الثرى قدمىّ عابرِ
لقد حال يابسـةٌ مـاؤه	بسلطان هذا الهوى الساحرِ
وصيّرنى سحرُ هذا الهوى	وبـى قـوة القادر الظافرِ
ألا إن سلطانَ هذى المياهِ	ليعنـو لسلطانـها القـاهرِ

وإذا كان على محمود طه من الرومانسيين المقلّين فى وصف هذا الجانب، فإن أحمد رامى يكثر مثل ناجى والشابى والعقاد من تصوير أثر المرأة ، فى تبديل طبيعته وتغيير نظرته إلى الأشياء . فإذا الأرض كلها مدْرج للخير ، وإذا الكون بأسره مصدر للسرور ، وإذا هو يطوي مع محبوبته صفحة الأمس ، ويستقبل من الحظ خيرا مما يستدبر :[١٢]

فإذا ما لقيتُ وجهكِ جددتِ طماحى إلى العلا واستنانى
وتزودتُ ما أطيق به الصبر على ما حملتُ من أحزانى

فإذا انتقلنا إلى أجيال أخرى من الشعراء الرومانسيين وجدنا الظاهرة تطّرد ، فيصف حسن كامل الصيرفى فى قصيدة "البعث" ، كيف بعثته محبوبته إنسانا آخر جديد النفس ، مؤتلِق الرؤية :[١٣]

قد كان أسلم للسكون صدّى	أسـيان تُلهيـهِ مشاغلُهُ
سأمـان تنـكره .. أواخره	وتكـاد تنسـاه أوائلُهُ
فبعثتِـه فـى جِدّة عجبٍ	حتى ازدهى بالحلْى عاطلُهُ

وينُهى القصيدة بقوله لها :

من وحى عينيكِ استمدّ له	بعثـا فأورق فيـه ذابلُـهُ

وهذه القصيدة من ديوان "النبع" ، وهو ميسم يكشف مع عناوين داخلية

أخرى فيه ، عما يحسّه الرجل من تأثير حَسَنٍ للمرأة فى نفسه وظل الشعراء الرومانسيون يصوّرون إشراق نفوسهم لطلوع المرأة فى آفاقهم حتى تركوا في ذلك شعرا كثيرا . يقول إبراهيم عيسى : [١٤]

بحبكِ صرتُ أمير الحيـــاةِ كأنى ملكتُ الوجودَ جميعا
وأحيا خريف حياتى ولكنْ هــواك أعاد لقلبى الربيعا
وأورق حتى هشيم السنينِ وأصبح دهـرىَ قطًا وديعا
وأركب زورق شوقٍ صبِـيٍّ فيبعث تحتىَ موجـا خليعا

وآخر ما نذكره من شواهد ذلك ، كلمات لشاعر رومانسى شاب يقول عبد العزيز جويدة :[١٥]

سُئلتُ كثيرا : وهل من دليلٍ لقلبٍ يُحِبْ ؟
فقلت : الدليلُ وما فيه ريبْ
يكون التغيُّر فى كل قلبْ
فبين الصحارى حياة تدبْ
فتشدو طيور ، وتنمو زهور على كل هُدْبْ
ويخضرّ عمركَ من بعد جدبْ
ويصبح قلبك واحات عشق ، ففى القلب ماءٌ وفى العين عشبْ

فهو يجعل ما يجدّ فى حياة المرء من تفاؤل النظرة إلى الأشياء ، إشارة أو دليلاً على تسلل عاطفة الحب إلى نفسه ، فهى وحدها القادرة على إحداث هذا التحوّل . لقد كان (لامارتين) على حق حين قال :

"خلق الإنسان للحب ،فهو لا يشعر برجولته وإنسانيته إلا يوم يشعر حقيقة أنه يحب ، أما قبل ذلك فهو يبحث ويقلق ويضطرب ويضل فى شعاب فكره ، حتى إذا ما وجد الحب وعرفه وقف واستراح ، وخلّى زمامه بيد القدر"[١٦]
وهذا ما عبّر عنه ناجى حين قال :[١٧]

كلٌ له ليلى ، ومنْ لم يلقها فحياته عبء ومحض هباء
كلٌ له ليلى يـرى فى حبها سر الدُنى وحقيقة الأشياء

وهو أيضاً ما عبّر عنه الشابى فى قوله للمرأة ، مقراً بفضلها فى إشاعة الإحساس بسحر الوجود :[١٨]

والوجود الرحيب كالقبر لولا ما تجلّين من قطوب الوجود

القلق الرومانسى

متى كان للحب هذا التأثير القوى فى تغيير رؤية الإنسان وإعادة تشكيل إحساسه وطباعه ، كان هذا الحب خطرا عظيماً على النفس ، إذ هو قادر فى حال إخفاقه على تدمير هذه النفس التى أعاد من قبل بناءها وصياغتها على نحو جميل ، بقدر إحساس الإنسان بما أضفاه عليه الحب من سعادة غمرت كل جوانبه حتى فاضت على الوجود من حوله ، يكون إحساس هذا الإنسان بالشقاء حين تُنتزع هذه السعادة منه . وإن الشعور بالخسارة بعد الربح لأكثر عمقا فى النفس من نشوتها به . ولعل هذا ما عبر عنه أبو العلاء فأجاد التعبير حيث قال فى مرثيته الشهيرة :[١٩]

إن حُزنا فى ساعة الموت أضعافُ سرورٍ فى ساعة الميلادِ

فما يصيب النفوس من ألم لموت حبيب إليها ، أشد تأثيراً فيها من سعادتها يوم ميلاده .

وقد ألححتُ بالشواهد الكثيرة للكشف عن قوة إحساس العاشق الرومانسى بأهمية الحب فى حياته النفسية والعملية . لأن هذا خير ما يعين القارىء على تصوّر حالة هذا العاشق يُخفق فى حبه فإذا لم يتسنّ له ذلك فليعش مع إبراهيم ناجى وأبى القاسم الشابى فى النّصين التاليين بعض آلام هؤلاء وشكواهم ، مما يصيبهم الهجر به من انتكاس أرواحهم . ولعل البيت

التالى لإبراهيم ناجى خير تمهيد لهذين النّصين ، لأنه يوجز فى عبارة قصيرة ، ما سيفصّلانه ويجلّوان الكثير من ملامحه . يقول الشاعر لمحبوبته :[٢٠]

إنى التفتّ إلى مكانكِ بعدما خلّيتِهِ فبكيتُ سوءَ مكانى

فهذا القول إيجاز لوصف طويل وإشارةٌ مكثفة إلى شعور مرير . وما سوء مكانه إلا هذا الخواء الروحى الذى راح فى النص التالى يرسم تفاصيله ويعدد ملامحه :[٢١]

بعينيكِ أستهدى ، فكيف تركتنى بهذا الظلام المطبق الجهْم أستهدى؟!
بوِردكِ أستسقى، فكيف تركتنى لهذى الفيافى الصم والكُثُب الجُرد؟!
بحبكِ أستشفى ، فكيف تركتنى ولم يبق غير العظم والروح واجلدِ؟!
وهذى المنايا الحمر ترقص فى دمى وهذى المنايا البيض تختال فى بَرْدى
وكنتُ إذا شاكيتُ خففتِ محملى فهان الذى ألقاه فى العيش من جهْدِ
وكنتِ إذا انهار البناء رفعتِهِ فلم تكن الأيام تقوى على سدّى
..... إلخ .

وكان أبو القاسم الشابى على رأس مَنْ برعوا فى تصوير ما يحسه العاشق من هذا الفراغ النفسى . والصورتان التاليتان من قصيدة واحدة يرسمهما لقلبه بعد رحيل إلفه ، وقد رانت عليه الكآبة وغلفته برودة الموت :[٢٢]

أنت يا قلبىَ عشٌّ نفرت عنه القطاةُ
فأطارته إلى النهر الرياح العاتياتُ
فهو فى التيار أوراق وأعوادٌ عُراةُ

أما الصورة الثانية التى نسجها خياله الحزين فتبدو ملامحها الموحشة فى قوله :

أنت عُودُ مزّقت أوتاره كفُّ الحياة
فهو فى وحشته الخرساء بين الكائنات
صامت كالقبر إلاّ من أنين الذكريات

فقلبه الذى أقفر بعد رحيل إلفه فأحس الوحشة والضياع ، مثل ذلك العش الذى كان آهلا ينبض بالسعادة ، ثم نفرت عنه طيوره ، وألقت الرياح بأعواده لعارية لتضيع فى غمرة نهر جارف . وهو فى كآبته وما يرين عليه من صمت ، كالعوُد مزّقت أوتاره ، فأصبح يعانى صمت القبور ووحشتها .

وإذا كان الحب حياةً لهذا العاشق الرومانسي ، وضياعه ضياعا له ومأساة تفزع لها نفسه ويضطرب وجدانه على نحو ما وصف ناجى والشابى ، فلابد أن يعيش هذا المحب طوال حياته مفزّعا مضطرب النفس ، حتى وهو على وصْل لم يفجّع بعدُ بهجر . وليس ذلك إلاّ لأنه يتوجس دوما من أن يأتيه الغد بما لا تحتمله نفسه من الفرقة وشتات الشمل .

ومن ثمّ ، كثرت شكواهم وطال حديثهم عن مخارفهم التى بلغت عند بعضهم حد التشاؤم والطيرة ، كما كثرت همساتهم الراجية المستعطفة ، يرسلونها إلى المحبوب وهم جاثون بين يديه ، لئلا يروّعهم بفرقة تنزع عنهم جناح خيالهم الفضفاض الذى حلقوا به فى سماوات الحب الفساح ، فتهوى قلوبهم إلى أرض الواقع ، تلك الجلمد الجدباء .

ولنستمع إلى إبراهيم ناجى يهيب بمحبوبته التى غيرت مجرى حياته فاعتلت به قمة عالية من السعادة ، ألاّ تدعه يعود إلى السفح حيث يقبع التعساء :[٢٣]

عرفتكِ عرفان السماء ولم تكن ... سوى همسات النجم ما جال فى صدرى
وغامت خطوط السفح حتى نسيتُها ... وحتى توارى السفح من عالم الذكرِ
وفى القمم الشماء حلقت حائماً ... وأنبتَ فى أعلى شواهنها وكرى

فهو يبدأ ببيان ما ابتعثته فى نفسه من إحساس بالسعادة والسمو ، أيقن معه أنه ودّع حياة السفح ، حياة الشقاء ، وأنه قد طال كل ما كانت روحه تهفو إليه . ثم يصف لها كيف يعزّ على نفسه أن تجرّد من كل هذه السعادة ، وتعرّى من كل ما كساها الحب من ألق :

فيا منتهى مجدى إلى منتهى الغنى ... غنى الروح بعد الضنك والذل والفقرِ
أعيذكِ أن أغدو إلى صخرة لقىً ... وكنتِ مجنّى فى مقارعة الصخرِ
أعيذكِ بعد التاج والعرش والذى ... تألّق من ماس وشعشع من تبرِ
أعيذكِ من ردّى إلى سفه الثرى ... وحطّته بين الأكاذيب والغدرِ
فإن عدتُ وحدى بعد رحلتنا معا ... شريداً على الدنيا ،ذليلا على الدهرِ
رجعتُ بجرحى فاغر الفم داميا ... أداريه فى صمت وما أحدٌ يدرى

وهذه الأبيات المقتطعة من قصيدتها - على قلتها - تصور إحساس المحب بما يخلعه عليه الحب من نشوة تبدل حياته تماما ، حتى إنها لترفعه عن سفح الحياة إلى قمتها ، كما تصف خوفه من أن يفقد هذه النشوة فيرتد إلى وهدة الضياع والذل ، يجتر آلامه ويشرق بدمه .

وفى ضوء ما سبق يمكننا تفسير ما نجده فى الشعر الرومانسي كثيرا وفى العذرى أحيانا ، من تبرّم بالحب وإبداء الضجر منه ، حتى إن العاشق ليتمنى أن يزايله هذا الحب ، وهو فى حقيقة أمره حريص أشد الحرص عليه . هذه الظاهرة لا تعكس سأما يحسه المحبّون وإنما تعكس ما يعانون من صنوف الشدة فى تقلّبهم بين الرجاء واليأس ، وخوفهم من إخفاق تتصدّع له قلوبهم ، يسلبهم كل ما كان هذا الحب قد ألقاه فيها من بهجة ، وما استحدث فيها من أوطار . وليس

يستغرب أن يكثر الشاعر الرومانسي من اشتكاء محبوبته لغير ما ذنب، ومن إشاعة تتام مخاوفه وهواجسه ، ومن بكاء هذا الحب وصوغ أعذب المراثى وأشجاها له ، وهذا الحب قائم ، ولا يوجد فيه ما يدعو إلى بكاء أو شكوى ، كما هو تأن أبى القاسم الشابى . يقول فى " طريق الهاوية" :[٢٤]

يا عذارى الجمال والحب والأحلام ، بل يا بهاء هذا الوجودِ
خلق البلبل الجميل ليشدو وخلقتنّ للغرام لسعيدِ
والوجود الرحيب كالقبر لولا ما تجلّين من قطوب الوجودِ

ولأنه يحس أهمية المرأة فى حياته وقدرتها على إسعاده ، يدرك تماما ما يمكن لهذه المرأة أن تحدثه من اضطراب لنفسه وشقاء فى حياته ، فالقادر على العطاء قادر على المنع .و لهذا نراه يحدثها فى القصيدة عما يجول بنفسه من مخاوف، تنغص عيشه ، وتكدّر صفوه :

يا زهورَ الحياة للحب أنتُنّ ، ولكنّه مخيف الورودِ
فَسبيل الغرام جمّ المهاوى وأخو الهول . مُستربٌ الصعيدِ
رغم ما فيه من جمال وفنٍ عبقريّ ، ما إن له من وجودِ

ويستمر فى حديثه معددا مخاوفه ، معللا لها :

وسبيل الحياة رحب وأنتن اللواتى تفرشنه بالورودِ
إن أردتن أن يكون بهيجاً رائع السحر ذا جمال فريدِ
أو بشوك يدمى الفضيلة والحب ، ويقضى على بهاء الوجودِ
إن أردتن أن يكون شنيعاً مظلم الأفق ميّت التغريدِ

وعنوان القصيدة ينم عن مضمونها الذى لا يلبث ، أن يتكشّف شيئاً فشيئاً . فإذا به يجلو تشاؤما حاداً يغلف عاطفة الحب عند الشاعر ، وعند العشاق الرومانسيين بعامة .

وفى قصيدة " أيها الحب " يعبر الشابى عن حيرته فى أمر هذه العاطفة التى تنشأ بقلب المرء ، فلا يدرى : أهى خير هُيىء له ؟ أم شر أريد به ؟ :[٢٥]

أيها الحب أنت سـر بلائى ... وهمومى وروعتى وشقائى
ونحولى وأدمعى وعذابى ... وسقامى ولوعتى وشقائى
أيها الحب أنت سر وجودى ... وحياتى وعزتى وإبائى
وشعاعى ما بين ديجور دهرى ... وأليفى وقرّتى ورجائى
يا سُلاف الفؤاد ، يا سُمّ نفسى ... فى حياتي يا شِدّتى ، يا رجائي
أ لهيبٌ يثور فى روضة النفس فيطغَى ، أم أنت نور السماء؟!

وهكذا لا ينتهى الشاعر من حيرته وتساؤله إلى إجابة يحزم بها مره . وكيف لمن تتقلّبُ نفسه بين أحاسيس شتى ، متناقضة ومتضاربة ، أن يبنى على بعضها حكمه وقراره ؟! وهذه الحيرة والتساؤلات العديدة لا تعّبر عن تشكك الشاعر الرومانسى فى جدوى الحب ، وإنما تعبر ـ كما ذكرنا ـ عن مخاوفه من فقدان حبه ، وما يعقب ذلك من حسرة لا تحتملها نفسه . ولعل قصيدة "عاصفة" لعمر أبي ريشة ، من خير ما يصور هذه الحسرة التى تحوّلت عند صاحبها إلى غضبة عارمة ، لامتهان عواطفه ، ولإخفاق آماله ، يقول لمحبوبته وقد أحسّ تبدّل مودتها :[٢٦]

انهضى وانظرى إلىّ مليّا ... يا سراب المدلَّهِ الظمآنِ
هل تركت الشباب فىَ شباباً ... يتهادى ببُرده الفينانِ
اقرئى فى غضونه شقوة العمر ففيها ما دق عن تبيانى
يا لَجهلى ، لكم لمحت .. بعينيك حياة علوية الألوانِ
واتخذت العهود منك جناحىَ ، لأفق عذب الرؤى ، ريّانِ
فتخيلتُ أننى أصنع الدهـ ... ـر وأجنى من قفره ريحانى
فإذا بى صفر اليدين مكبٌ ... فوق أشلاء حُلمىَ الفتّان

وهذا القلق والتطير ، الذى يجعل العاشق الرومانسى يستبق الزمن ، فيبكى غده ولا يهنأ بحاضره ، نراه أيضاً فيما يبثه الشعراء من شكوى الفراق وهم على لقاء ، مستوحشين من الفرقة وهم على وصال ، فيقول رامى :[٢٧]

لم أدر ما أنس اللقاء وطيبه ما دام قد خطر الفراق ببالى

ويقول فى القصيدة نفسها :

ورأيتنى من قبل أنسى باللقا فى وحشة غامت على بلبالى

كما يصف مصطفى عبد الرحمن هذا الإحساس الذى يمضه ويحول دون سعادته بقرب محبوبه :[٢٨]

بعـــادك آلام . وقربـــك آلامُ وعيشـىَ بين القرب والبعد أوهامُ
إذا غبـتِ عنـــى فالحياة مواجعٌ تؤرقُنـــى والعيش شجْو وأسقامُ
وأخشـى لدى لقياكِ وشْك افتراقنا وأخشى إذا امتدت على الشك أيامُ

وهكذا لا يكاد العاشق الرومانسى يهنأ بحب ، إذ لا ينصرف بخياله وبخواطره - غالبا - إلاّ إلى شىء واحد ، وهو : تصوّر نفسه وحيداً مجْفُواً . وقد بلغت هذه السوداوّية حَدا أبعد ، إذ جعل هذا الرومانسى العاشق يرى فشل الحب هو النهاية الطبيعية أو الحتمية له ، بعد أن كان ذلك هاجسا تردُّ له نفسه، أو شكًا يساور هذه النفس . يقول عبد العليم عيسى :[٢٩]

لا تحسبى أنى خُدِعتُ فإننى بجميع حالات النساء عليمُ
ما فاجأت قلبى نهاية قصتى فختامها من بدئها معلومُ
كل النهـــايات الحزينة أنبأت قلبـــى بأن الحب ليس يدومُ

وبرغم ما علمه هذا المحب وتيقنه ، خاض التجربة واستمرأ المعاناة ، يكفى أن الحب سينسيه - إلى حين - غصص الحياة ورَنَقها :

أنا بالهوى أحيا ، وأنسى أننى بـغد سيلقفنى الردى المحتومُ

وما وجدتُ محبا تمنى عن رغبة صادقة ، أن يبرأ قلبه من حب ، طلبا للراحة مما يعانيه أو يتوجس منه . وكأن ناجى يعنيهم جميعا حين قال :[٣٠]

بعض الهوى فيه الدمار وإنما بعض النفوس على الدمار حراصُ
فيكون فيه القيد وهو تحرر ويكون فيه الموت وهو خلاصُ

ثم ماذا يعنى قوله :[٣١]

ملء ضلوعى لظىً وأعجبهُ أنى بهذا اللهيب أبتردُ

هل يعنى سوى أن العاشق يستعذب آلام الحب ويفضلها ، على أن يعيش فارغ النفس كذينك العش والعود اللذين وصف الشابي فأجاد الوصف !؟

استعذاب الألم

وثمة تفسير آخر لقلق الرومانسى وخوفه من إخفاق حبه ، وانتهائه بمأساة يدمى لها قلبه ، وهو أن الرومانسى لحدة مزاجه ولتوفز خياله ، يتصوّر نفسه دوما مهجوراً مجفواً من المرأة التى يحب ، فيتألم ويستمرىء هذا الألم ، ثم يسعد إذا ما تمخضت هذه الآلام عن ثمرة شهية من إبداعه ، ما كان له أن يتحصّل عليها هانىء النفس ناعم البال . وهل كان للأدب العربى - لولا الألم - أن يحظى بمثل روميّات أبى فراس، وسيفيّات المتنبى بعد مغادرته حلب ، أو بمثل أندلسيات شوقي وبكائيّات البارودى والسياب وقد حطت بهم المحن وفارقوا الأهل والوطن !؟

فإذا عرفنا أن المرأة بالنسبة إلى العاشق الرومانسى وجود آخر ، وعلاقة متميزة لأنها قبلة روحه وملاذه الآمن الذى يحتمى به ويستظل بظله ، بعيداً عن واقعه الذى يُنكره ويحس الاغتراب فيه - إذا عرفنا ذلك ، أدركنا حدة ما ينشأ

فى صدر هذا الرومانسى من الألم وهو يتمثل وحدته وعُرى نفسه ، وتوقعنا ما يمكن أن يصدر عنه فى مثل هذه الحال من إبداع خصب .

إذن فكثير من القلق الرومانسى نوع من استعذاب الألم (الماسوشية) . ولهذه الجفوة الرومانسية المصطنعة بين المحب والمحبوب ، جذور في شعر المحافظين والشعر القديم ، لكن الفرق شديد الوضوح بين هؤلاء وأولئك ، فأغلب حديث المحافظين والقدامى عنها - ما عدا العذريين - لا يجوز الإخبار عنها إلى وصفها وشرح معاناة النفس بها ، بينما هو عند الرومانسيين والعذريين حالة يعيشونها ويجيدون وصفها وبيان ما يجدّ على النفس منها . فالمرأة أخيرا عندهم مصدر إلهام لا ينضب معينه فى كلتا الحالتين ، تلهمهم قاسية جافية ، كما تلهمهم حانية دانية . يقول رامى :[٣٢]

أحبّك ، لا ، بل أعبد الشعر والهوى ... جمعتهما معنىً يشوق خيالى
ويُملى على فكري الذى لا أقوله ... وقلبى من الوجد المبّرح خالى

وكما أن الوصال للرومانسى نعيم لقلبه ، فإن الهجر والخصام خير لشاعريته ومدد يستمد منه . ولا عجب من أن يصّدر هؤلاء الرومانسيون شعرهم بمثل إهداء رامى :[٣٣]

إلى محراب أفكارى ... ومهبط وحي أشعارى
إلى القلب الذى حرك بالأشجان أوتارى
.... الخ .

ولا عجب من أن ينسبوه إلى المرأة كما نسبه حسن كامل الصيرفى :[٣٤]

أنا لا أقول : أنا مؤلفه ... آمنت أنكِ أنتِ قائلُهُ
حركته روحا على قلمى ... فغدت عرائسه تغازلُهُ
وبعثتِه نغما على شفتى ... فتجاوبتْ معها بلابلُهُ

وهذه القصيدة كلها فضلا عن كثير غيرها ، وصف لأثر المرأة فى ابتعاث ما خمد من روح الشاعر ، وفى إرجاع طائر الشعر الجميل إلى خميلته ، وهو يختمها بقوله :

أنا لا أقول نظمت حليته لكننى أنا عنكِ ناقلُهُ

فيرد الشىء إلى أصله ومصدره

الموت مأثرة رومانسية

تحدثنا عن قلق الرومانسى ومخاوفه من أن يُمنى بهجر ، يصبر بسببه وحيداً يعانى من تمزق روحه ، ما يجعل صور المنيّة ماثلة لخياله . فماذا يحدث لهذا الرومانسى العاشق إذا فُجع بموت محبوبته ، ووجد نفسه فى الحقيقة أمام هول أشد مما كان يخشاه فى الخيال ؟

من الطبيعى أن تنغلق منافذ الحياة وأن تنسد مساربها أمام عينيه ، ولا يبقى أمامه بعد أن فقدها إلاّ أن يهْرع إلى الموت مادّاً يده ملتمسا اللحاق بها وإراحة صدره من أثقال لا يحتملها . وها هو ناجى يصف لمحبوبته - هى على حياة - ما أحسه فى بعدها من ضياع ، وكيف تحولت الدنيا على اتساعها فى عينيه إلى قبر ضيق :[٣٥]

عند أقدامكِ دنيا تنتهى وعلى بابك آمالُ تموتْ

قد رأيتُ الكون قبرا ضيقاً خيّم اليأس عليه والسكوتْ

ولنستمع إليه وقد راح ليأسه من عودتها يتشهّى الموت ويرحّب به : [٣٦]

أصبحت من يأسى لو انّ الردى يهتف بى ، صِحتُ به هيّا

هيّا فما فى الأرض لى مطمعٌ ولا أرى لى بعدها شيّا

فإذا كان هذا هو شأن الرومانسى فى شكوى الفراق ، فما عسى حاله أن تكون وقد روّعه الموت ؟!

لا قيمة بعدُ للبقاء ولا جدوى من الحياة ، فعُمر وجوده الحقيقى مقيس بُعمر محبوبته ، وما عاش بعدها محسوب عليه ، لا له . وكل رومانسى ، يتمنى ما سبق أن تمناه ذلك المحب القديم وعلل نفسه به : [٣٧] .

ولو أننى إذ حان وقت حِمامِها ... أُحكِّم فى عُمرى لقاسمتُها عمرى
فحل بنا الفقدان فى ساعةٍ معا ... فمِتُّ ولاتدرى وماتت ولاأدرى

فلعمر بالنسبة لأصحاب الحب الروحى ليس كل ما يعيشون ، بل ما ينعمون فيه بالإلف من زمن وإن قل . وهذا إحساس عبّر عنه شوقى حين قال على لسان المجنون : [٣٨] .

قد يهون العمرُ إلا ساعةً ... وتضيق الأرض إلّا موضعا

وعبر عنه مرة ثانية وهو يسترجع ذكريات صباه فى زحْلة : [٣٩]

لا أمسِ من عمر الزمان ولا غدُ ... جُمع الزمانُ فكان يوم رضاكِ

وقد تناول ناجى ، العاشق الرومانسى ، هذا الإحساس بتفصيل أكثر فقال : [٤٠]

إن يومـا واحدا أسعدنـى ... جمع الأفراح طُرّاً من شتاتْ
وهو عمرٌ كامل عشت بـه ... كلّ أعمار الورى مجتمعاتْ
لستُ أنساكِ وقد علّمتنى ... كيف يحيا رجلٌ فوق الحياةْ

لهذا كان طبيعيا أن ينتهى عمر المحب الرومانسي بانتهاء حبه ،وبعبارة أصح ، حين يبلغ حد اليأس التام منه . ومن ثم لا يعبر استسلامه للموت فى هذه الحالة أو استعجاله عن هلع نفسى طارىء ، وإنما يعبر عن قناعة نفسه بأن لا جدوى من البقاء . ولعل تجربة أبى القاسم الشابى بعد موت حبيبته تجلو لنا الكثير من حطام هذه النفوس الرومانسية ، وما يصيبها من تصدّع لا رأب له .

فالشاعر يطالعنا فى أغلب شعره بوجه غائم مكفهر ، لا يكاد يبدو فى عينيه شعاع نور ضئيل يستقبل الحياة به . ولعل معزفته الحزينة " إلى الموت " ، نموذج من ألحانه الدامية التى وقعها ملتمسا الخلاص وسرعة الرحيل . فالموت هو العالم الوحيد الذى تحقق فيه روحه ما تهفو إليه من سلام وخلود : (٤١)

إلى الموت إن حاصرتك الخطوب وسدّت عليك سبيل السلامْ
ففى عالم الموت تنضو الحياةُ ، رداء الأسى وقناع الظلامْ
وتبدو كما خُلقتْ غضّة ، يفيض على وجهها الابتسامْ
تعيدُ عليها ظلال الخلود ، وتهفو عليها قلوب الأنامْ

فالموت لم يعد شبحا مخيفا تفزع النفوس إذا مر بها خاطره . لقد صار بعثا جديدا لوجود أفضل ، كل ما فيه جديد ويهيج ، كما صار صديقا يلمس بكفه الحانية جباه المرهقين فيزيل ما بهم من أستام الروح وأوصاب البدن : (٤٢)

هو الموت طيف الخلود الجميل ، ونصف الحياة الذى لا ينوحْ
هنالك خلف الفضاء البعيد ، يعيش المنون ، القوىّ الصبوحْ
يضم القلوب إلى صدره ، ليأسوَ ما مضّها من جروحْ
ويبعث فيها ربيع الحياة ، ويبهجه بالصباح الفروحْ

وما رسمه الشاعر فى هذه الأبيات ، صورة لأم رءوم تأخذ ابنها المرهق بين ذراعيها ، فيحس الأمان والدفء ، وليس صورة الموت الكئيب الذى يخشاه الناس ويتطيّرون من ذكره .

وهكذا لا يمثّل الموت نهاية مأساوية فاجعة ،لأنه كما قال أبو القاسم الشابى (طيف الخلود الجميل) و (نصف الحياة الذى لا ينوح) ، وليس نهاية لهذه الحياة ، إلى غير ذلك مما عزاه إلى الموت من سمات الجمال والرحمة . وإذا كان الموت يُفنى مادة الإنسان المتمثّلة فى جسده ويحللها ، فلكى يطلق روحه من

عقالها . لتعيش وجوداً آخر أى إن الموت صياغة جديدة وبعث أفضل .

وقد نطالع فى شعر الشابى ما يوهم بتفاؤله ، كقوله ينهنه عن الحزن قلبه : (٤٣)

يا قلبى الدامي ا إلام الوجـــومْ ؟
يكفيـــك أن الحزن فظ غشـــومْ
هـــذى كـــؤوس مُرة كالـــرَدى
ما ملـــؤها إلا عصير الهمـــومْ
رذاك نايـــى صامت واجـــمٌ
يصغى إلى صوت الغرامْ القديمْ

رمحاولته فى القصيدة نفسها استنهاض هذا القلب لحياة أفضل يجوز بها محنته :

ما فـــى فضـــاء الكون شـــىء يدومْ
فانثـــر غبـــار الحـــزن فوق الدجىْ
واسمع إلى صوت الشـباب الرخيمْ
وانقـــر علـــى دف الهـــوى لحنهُ
وارقص مع النور الضحوك الوسيمْ

لكن هذا لا يفسّر انبثاق نور جديد فى نفسه بقدر ما يعكس عمق إحساسه بوطأة الكارثة ووهن عزيمته . كما أن هذا الصوت الذى يوهم القارىء بالتفاؤل خافت النبرة ، يضيع فى جلجلة الأصوات اليائسة التى تجبهنا فى مواطن عديدة من شعره ، مؤكدة المضمون النفسى لقوله : (٤٤)

وِردُ الحياة مرنَّـقٌ والموت مورده مَعِينْ

وهذه النهاية الرومانسية الفاجعة التى يمثلها شعر الشابى وغيره من

الشعراء الرومانسيين ومن قبلهم العذريون . تمثل أيضاً الختام الواجب والمتوقع لكافة الأعمال الرومانسية التي تنتهي فيها عاطفة الحب بالإخفاق . فحياة المحب بعد رحيل محبوبته أمر لا يطيب للأديب الرومانسي أن يتوج به قصته أو قصيدته ، إذ لا يراه من أدلة الوفاء وصدق الشعور. ولشيوع هذه الظاهرة في الأدب الرومانسي عُدَّت "مأثرة" رومانسية وهي ليست مقصورة على دنيا الخيال على غرار ما نجد في قصص مثل "بول وفرجيني" ، بل نجد في طيات التاريخ مثلها ، وما كان انتحار "كيلوباترة" ، بعد علمها بمصرع (انطونيوس) ،سوى تعبير عملي عن إحساسها بعبث الحياة وانعدام جدواها ؟ وحوادث انتحار المحبين تقع باستمرار ، وتطالعنا بها الصحف يوما بعد الآخر . وقد تناول خليل مطران حادثا منها في إحدى قصائده ، فوصف ما جاشت به نفس المحب من سم العيش بدون محبوبته ، فألقى بنفسه في الماء غير مكترث بثرائه العريض ، أو مستمد منه ومن شبابه شعاع أمل جديد [٤٥]:

باغته اليأس وأي امرىء ... يقدر في حال على ردّهِ
واليأس إن فاجأ ذا مِرّةٍ ... دوّخ ذا المِرّة عن قصدهِ

بين الروح والجسد

يجد الطاعم لذته في تعدد أطعمته ومثيرات شهيته . وهذا شأن عاشق الجسد ، يتنقّل بين النساء فيرى في كل واحدة من علامات الفتنة مالا يراه في الأخرى ، ويحس في كل جسد من دواعي الغواية مالا يحسه في الجسد الآخر . ومن ثم لا تضوى روحه لفرقة ، لأنه دوماً موصولُ ، مقضيّ الحاجة .

في حب العذريين والرومانسيين نجد رباطا آخر يجمع بين الرجل والمرأة ، ويشد كلا منهما إلى الآخر بهذه القوة التي عرضنا ملامحها ، ووصلت لي حد أن يقيس الواحد منهما عمره بعمر إلفه فيتمنى أن يقضي معه في لحظة واحدة ، وأن يثوى معه في قبر واحد .

وهذا الرباط هو ما دأب الناس على تسميته بـ " الرباط الروحى " ، ولا نكاد نعثر فى وصف هذا اللون من اعتلاق الأنفس على غير هذا النعت ، يدلّلون به على سمو الحب وترفّعه عن مباذل الجسد .

ولعل فى حديث الدكتور عز الدين إسماعيل عن مفهوم الجمال عند الشابى ، ما يكشف عن مفهوم الجمال عند الرومانسيين بعامة . فحديث الشابى في هذا الموضوع كان رفعا من شأن الروح وغضا من أهمية الشكل ،لأن ما تقع عليه الحاسة من مظاهر الحسن ليس من الجمال الذى يروقه ، إذ هو نسبىّ وحائل . ولم يكن الشابى فى موقفه هذا - كما يذكر الناقد - منكرا على المرأة حُسن شكلها ، وإنما كان يرى أن الشكل مهما حوى من علامات الحسن عَرَض ينبغى تجاوزه إلى الجوهر الذى يستره ، فلا قيمة لشكل حَسَن ، فى جسد أظلمت روحه وأعتمت سريرته : (٤٦)

وهذه النظرة التى ترفع من قيمة الجمال المعنوى وتفتش عنه خلف حجب وأستار الجسد ، هى ما حرص الشعراء الرومانسيون على تأكيدها . يقول الشابى فى " الجمال المنشود" : (٤٧)

يا عذارى الجمال والحب والأحلام ، بل يا بهاء هذا الوجود!
قد رأينا الشعور منسدلات كلّلت حسنها صباح الورود
ورأينا الجفون تبسم أو تحلم بالنور ، بالهوى ، بالنشيد
ورأينا الخدود ضرّجها السحر فآها من سحر تلك الخدود!
ورأينا الشفاه تبسم عن دنيا من الورد غضة أملود
ورأينا النهود تهتز كالأزهار فى نشوة لشباب السعيد
فتنة توقظ الغرام وتذكيه ، ولكن ماذا وراء النهود؟!

وشرع الشاعر فى القصيدة يسائل هؤلاء العذارى ، عما تخفيه معالم الفتنة الحسية الطاغية من جمال الروح ، وما يكون قد استسرّ فى ضمائرهن من

طباع النفس ، فهى ما يبحث عنه ويهفو إلى معرفته :

ما الذى خلف سحرها الحالم السكران فى ذلك القرار البعيد ؟
أنفوس جميلة ، كطيور الغاب تشدو بساحر التغريد
طاهرات كأنها أرج الأزهار فى مولد الربيع الجديد ؟
وقلوب مضيئة كنجوم الليل ، ضوّاعة ، كفصن الورود ؟
أم ظلام كأنها قطع الليل ، وهول يشيب قلب الوليد ؟
وخضمّ يموج بالإثم والنُكر ، والشر و الضلال المديد ؟
لست أدرى ، فرب زهر شذىّ قاتل رغم حسنه المشهود !

والشاعر الذي يتساءل عما وراء فتنة الجسد من عالم الروح الخفى ، يتمنى ألاّ يكون هذا الجمال الحسىّ قناعاً يخفى وجها آخر دميما وباطنا قبيحاً . وهو حريص على أن ينبه حساوات الشكل ، إلى أنه لا يدوم لهن غير جمال الروح وإشراق النفس :

فربيع الشباب يذبله الدهر ويمضى بحسنه المعبود
غير باق فى الكون إلا جمال الروح غضًا على الزمان الأبيد

وقد أدى هذا العشق الروحى لطباع المرأة وسجاياها ، للثابت فى نفسها لا المتغير من شكلها ، أدى إلى بروز عنصرين هامين فى حديث الحب الرومانسى :

(الأول) : كثرة حديث العاشق الرومانسى عن خلود حبه برغم ما يعترى محبوبته من وهن الجسد وذهاب الرّونق . يقول رامى فى "الجمال الراحل :[٤٨]

جفّ ماء الشباب فى وجنتيها بعد أن جاد وردها عتّانا
وذوى قدّها الرطيب وقد كان حَليًا بزهره ، فيْنانا
فضلةٌ من محاسن وبقايا من جمال ،شاء القضا أن يُهانا

ولقد يذبل الندىَ من الزهر ويبقى عبيره أحياناً
ولقد يخفت الرخيم من الصو ت ويشجو رنينه الآذانا
ولقد ينضب الغدير ويبقى زهره فوق شطه ألوانا

وبعد أن ذكر الشاعر ما طرأ على محبوبته من معالم التحوّل والذبول ، راح يؤكد لها بقاءه على عهده ، لأنه لم يكن واحدا ممن تعلقوا برُوائها ثم راحوا فى إثره :

هكذا أنتِ فى الجمال وقد ذق ت من الدهر ذلّة وهوانا
إن يغبِ عنك معشر عبدوا فيك قديما جمالك الفتّانا
فأنا الصادق الوداد إذا حال مُحب عن الوداد وخانا
كل حُسْن يفنى فتمضى معانيه ، كأنْ لم يحَرك الأشجانا
غير أنى أرى لحسنكِ معنىً خالداً يملأ القلوب افتتانا

وليس ما يراه هذا المحب في محبوبته من معنىً خالد للحُسن ، سوى جمال طبعها ورقة نفسها ، وغير ذلك من ثوابت تدفعه دوما إلى وصلها والهيام بها . وهكذا لا يكون جمال المرأة وحُسن شكلها عند الرومانسيين ، هو العامل الأول فى ترجيح كفتها ، فتسعد به المرأة أو تشقى ، ويكون حظها من السعادة ومن الشقاء بقدر حظها منه . فالمحب الرومانسى لا يستخفه هذا الجمال . ثم هو لا يستميل المرأة الجميلة إليه ، بأن يقول لها ذات يوم مخوّفا مثل قول المتنبى : (٤٩)

زوّدينا من حُسْن وجهك مادا م فحُسن الوجوه حالٌ تحولُ

لأنه لا يعتلق بمثل هذا الحسن الحائل الزائل .

ويتبع ما سبق أيضاً أن يبقى العاشق الرومانسى على عاطفته إذا صارت محبوبته زوجة لغيره ، وصار جسدها حقا لسواه . ولقد كان العذريّون من قبلهم

فى هذه الحـالة ، أثبت مـا يكونون على مـودّتهم . ذلك أن هؤلاء وأمثالك لا يتشهّون الجسد فتنبَتُّ علاقتهم إثر تحوّله إلى غيرهم . فأجساد المحبين ترحل وتفترق . لكن أرواحهم لا تبرح ، أو هى تلتقى وتتزاور وإن عزّ لقاء الشخوص والأجساد : [٥٠]

لعلك تعجبين إذا التقـــينا ... على بيْن وقد عـزّ التلاقى
ألا تدرين أن لكل صَـــبٍّ ... عيوناً فى القلوب وفى المآقى
تحجوب وراء من تهوى الفيـافى ... فتـــنزح روحه والجســم باقِ

(الثانى) : وهذا العنصر الثانى نتيجة طبيعية للعنصر الأول ، ويتمثل فى اختفاء معجم الغزل التقليدى من الشعر الرومانسى . هذا الغزل الذى كان اهتمامه منصبًا على كل ما يحويه إهاب المرأة ، يصف جِرمها وصورتها ، بدءا من شعرها حتى إخمص قدميها ، ويتبعها مقبلةً مدبرة ، فهى : محطوطة المتنين، وعظيمة العجيزة ، ممتلئة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفّاء الفخذين ، ممتلئة الصدر ، خميصة البطن ، يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها ... إلخ [٥١]

وقد ذكرنا من قبل أن شعر المحافظين قد استبقى بعضا من هذه المقاييس الجمالية ، وطرح معظم ما كان من هذه المقاييس محركا خيال القارى بشهوة الجسد . فلما جاء الرومانسيون ، قضوا على ما كان المحافظون يقيمون عليه تماثيل الحسان من بقايا هذه المعايير المتوارثة ، وراحوا بقوة دفع العاطفة فى صدورهم وانطلاقة خيالهم ، يترجمون مباشرة عما فى نفوسهم ولا يلوون على شىء من ذلك [٥٢] فليس فى ديوان الشابى - على سبيل المثال وصف لمحاسن جسد المرأة سوى قصيدة " الغزال الفاتن " ، التى نظمها فى الرابعة عشرة من عمره ، وكأنه يروض القول فى مطلع حياته الفنية على طريقة القدامى [٥٣] :

من لظى جمر خدّهِ كبدى قد تحرّقا
قدّه فوق ردفهِ غصن بان على نَقا
جيده تحت فرعهِ برْق غيم تألقا
... الخ

وهذا الحديث عن المرأة ، يبدو نبرةً غريبة تماما عن سائر شعره . فلما توهّجت نفسه بالشاعرية وامتلأت بالحب ، واستقل بذاته وبطريقته ، اندفع يصوّر نزعته الخاصة إلى المرأة ، وهى نزعة تغض من كل ما هو حسّى على نحو ما ذكرنا منذ قليل . فكل ما هو حسّى وشكلىّ - كما يذكر الدكتور عز الدين إسماعيل - يتوارى من محبوبته ، فلا نراه ينفعل بغير جمالها المعنوى . ويمثل الناقد لذلك بقصيدته : " صلوات فى هيكل الحب " ، وبقوله فى مطلعها:(٥٤)

عذبةٌ أنتِ ، كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليدِ

فالشاعر لم يصف محبوبته فى البيتين بصفة حسّية واحدة . وهى إن تكن (عذبة) ، فإن هذه العذوبة يراها الشاعر من خلال معطيات أخرى ذات جمال معنوى لا حسّى ، مثل : الطفولة ، والأحلام ، والألحان ، وإشراقة الصباح ... إلخ . هذا بخلاف ما نسبه الشاعر إلى محبوبته فى باقى القصيدة من سمات الجمال المعنوى الأخرى .

وقد كان الناقد موفّقا حين أشار إلى أمر هام فى وصف الشاعر الرومانسى جمال المرأة ، وهو أن الشابى لم يكتف بما خلع على محبوبته من أوصاف معنوية ، وإنما قام أيضاً بنقل مظاهر جمالها الحسّى ، من مستواها الحسّى إلى مستوًى معنوى ، كما نجد فى قوله : (٥٥)

فتمايلتِ فى الوجود كلحنٍ عبقرىّ الخيال . حلو النشيدِ

خطـــواتُ ، سكرانـــة بالأناشـــيد ، وصوت كرجع ناى بعيدِ
وقـــوام يكـــاد ينطـــق بالألحـــان فى كـــل وقفـــة وقعودِ

فنظرة الشـاعـر إلى هذه العناصـر الحسّيـة فى جـمـال المرأة : خطوتهـا ، وقوامها ، وصوتها ، قد جَردت هذه العناصر من ملامحها التى كانت تستثيربها غريزة الرجل فى اشتهاء الجسد .

لقـد بقى عند الرومـانسـيين من حـديث القـدامى والمحـافظين عن جـمـال المرأة، شىء قليل . وهو فضلا عن قلّته ، قد تمت تنقيته إلى حد بعيد من كل ما كان يستهوى النفس إلى غير ما تلذّ الروح . ولعل معظم هذا القليل يتركز فى وصف بهاء وجه المرأة وجمال طلعتها ، ليس من خلال ما اعتاده الغَزِلون القدامى والمحـافظون، وإنما عُدل به عن طريقـتـهم فى دقـة عـرض التـفـاصـيل وتشكيل مواضع الفتنة ، إلى هذه الصفات المعنوية ذات الدلالة الجمالية المطلقة ، التى تلفت إلى معنى الجمـال لا مـوضوعـه . ولا يكاد الشـاعـر الرومـانسى يعدو فى حسّيّة وصفه قول رامى :[٥٦]

غُرّة كالصباح رفّتْ عليـــها طُرّة في سواد جنح الليـــالى
وعيـــون تشـــع بالأمـــل العذب وتُلـــــقى سحر الهوى والـدلا ِ
وفم تبسم الملاحـــــة فيـــه ببريق اللمى ، وظلم اللآلى
وقـــوام مهفـــهف القـــد ممشـــوق تهـــادى فى رفـق خطو الغزا ِ

وهذا قول لا ينزو له خيال القارىء ، لضعف ما فيه من لمسات الحس . ولنستمع إلى الشاعر يصف فى القصيدة نفسها ، طلعة محبوبته ورقة حديثها :

طالعتنى وكنت أخلس منـــــها خطرة الطيف فى سنوح الخيالِ
ثـــم مّـــرت كمـــا يهب نســـيم الروض عـــبر الغدير بـــين الظلالِ
وقضى الله أن أراهـــا وأروى ناظرى من بهاء تلك المجـالى

وسمعت الحديث من فمها المفترّ عن بسمة الندى فى الدوالى
فإذا خفقة القطاة إذا اختالت على الماء ساعة الآصال
وإذا رقّة النسيم إذ ا بثّ شكاة المهجور عند الوصال

وكل ما قدّمه من وصف يرجع فيه إلى الطبيعة ، فيجعل هذه الطلعة إشراقة كونية ، حافلة بكل ملامح الطبيعة العذراء ، من رقة وعذوبة ونقاء . وهكذا يتحول جمال المرأة إلى جزء من الجمال الكونى العام .

ولعل أهم ما استبقاه الرومانسى من لغة القدامى فى وصف جمال المرأة ، الحديث عن سحر عينيها وقوة تأثيرهما فى عواطف الرجل . وليس هذا من قبل الرومانسىّ تقليداً ، فالعين أهم ما يبده الرجل فى المرأة ، وهى برغم صغرها تختزن الكثير من العوا طف والانفعالات ، ونافذة يطل منها الرائى على كثير من دروب النفس . ونظرات العين جد صادقة ، لا قدرة لها على إخفاء حقيقة ما يدور بالنفس ، وهى فضلا عن صدقها ، ترجمة أمينة عن إحساس يستحى صاحبه الكشف عنه أو اختصار واف لحديث طويل يتعسّر على المرء البوح به .ورامى مصيب حيث يقول (٥٧):

وما العين إلا باب قلبي ترونه أفيه بكاءٌ ، أم به بسماتُ ؟
وقد يكذب الثغرُ العيونَ إذا جلا ولكنها لا تكذب اللحظاتُ

ولهذا لقيت العين منذ قديم قديم اهتمام الشعراء والأدباء كافة ولن تفقد هذا الاهتمام فى قابل .

لقد صار تغنىّ الشاعر الرومانسى بالمرأة مثل تغنيّه بالطبيعة ، يرى فيها صورة من نقائها وتعدد سحرها . فهو يرجع كل شيء فى المرأة إلى آخر فى الطبيعة . وهو يقف أمامها كما يقف فى الكون الواسع ، مبهورا بسحره وما فيه من جمال مطلق ، يحّسه ولا يعلله ، ويراه فى كل صوب فلا يحدده

التمرّد الرومانسى

يتعامل الرومانسى مع كل ما حوله من خلال إحساسه وسبحات خياله ، لا من خلال عيون الجماعة ونظرتها ، ومن ثم ، فقد جاء تعبيره عن الحياة مختلفا عما للآخرين ، وخارجا فى كثير منه على واقع هذه الحياة ومنطقها . وقد كان هذا من أسباب مقاومة هذا التيار ، الذى لا يقر واقعا ولا يذعن لعرف أو لشىء مما تواضع عليه الناس ، أو ارتضته عقولهم .

وإذا كان هذا هو شأن الرومانسى فى تلقى الواقع وفي التعبير عنه فهل يُنتظر منه إذا تحدث عن الحب وصّور حالات النفس ، وهو موضوع ألصق بذاته من غيره ، أن يذعن فى حديثه لعقل أو يقر سلطانا لعرف أو شرع ؟!

ثم إن حبه قد تأسس حين تأسس ، على غير نظرة الناس من حوله ، وارتضى هو فى تعلّقه غير ما ارتضوا ، وأعجب فيه بغير ما أعجبوا به ، فلِم لا يكون له وقد خالف منهجهم ، شرعته الخاصة التى يستنّها من وجدانه وعما يتردد فى أنحاء ذاته ؟

ثم إن الرومانسى أيضاً ، ليتأمل الأعراف التى استقرّت ومـ شرّعت السماء ووضع البشر ، ويستخلص جوهر ما حث عليه كل ذلك فى علاقة الرجل بالمرأة ، فإذا بهذا الجوهر يحض على ضرورة التعفف وصّون المرأة من ن يُبتذل جسدها وعِتهن ، كما كان فى غابر الزمن ، تكريما لها ودرءا لما ينجو عن ذلك من أضرار . وحين يقف على هذا الجوهر يدرك سلامة منهجه وصحة عاطفته ، لأنه ـ كما أوضحنا ـ منصرف عن جسد المرأة إلى روحها ، وعن شكلها إلى ما وراء هذا الشكل . إذن ، ليس هو المستهدَف بما فى هذه الأعراف والقوانين والشرائع من زجر وردع ، أو هو يستثنى نفسه من مخالفيها والخارجين عليها ، إن لم يعُلن اتساقه التام معها . وقد رأينا من قبل ، كيف يعجب العاشق العذرى من مجتمعه ، لأنه لا يتيح له فرصةً يلتقى فيها بمحبوبته ، بل ينقم على زوجها

لأن الغيرة تأخذه فيحول بينهما دون مبرّر ، إلاّ ما يتراءى لهذا الزوج من إثم لا أصل له فى خيال هذا العذري العاشق وروحه . وفى الشعر الرومانسى ، يعلن المحب كثيراً عن تمرّده ورفضه كلّ ما يعوق تواصل المحبين ، يقول ناجى : [٥٨]

برمتُ بأوضاع الورى ، ليس بينهم ... وشائج لم تُوصَل لغايٍ ولا أمرِ
إذا كان ما استنّوا وما شرعوا القلى ... فذلك شرع الطين والحمأ المُزرى
تمّردتُ لا ألوى على ما تـعـوّدوا ... ونفسى بهذا الشرع عارمة الكفرِ

فلأن الناس فى نظره يقيمون وشائجهم من أجل المآرب ، ساء ظنهم فى كل علاقة ، وسعوا فى التفريق بين كل متحابيْن . وليس ما أعلنه ناجى موقفاً فردياً ، وإنما هو إحساس عبّر عنه الشعراء الرومانسيون بكثرة ، لأنهم ـ كما يذكر الدكتور محمد غنيمى هلال ـ لا يقبلون من الأحكام والأعراف إلا ما جاء موافقا نزعتهم . وكأنهم يرون أن هذه الأعراف والأحكام ينبغى أن تأتى متطابقة مع هذه النزعة غير ناسخة لها . [٥٩]

ولم لا يكون هذا هو معتقد الرومانسيين ، وهم يصوّرون المرأة ملكاً هبط من السماء لتطهير قلوب الرجال [٦٠] ، ويقيمون للحب عبادة ذات طقوس خاصة وهياكل ومحاريب يجثون فيها أمام المحبوب ، ويرفعون إليه تراتيل الحب وهتاف الأرواح وخفقات الأفئدة ؟ فأبو القاسم الشابى يصف مناجاته محبوبته بأنها "صلوات فى هيكل الحب " [٦١] وناجى يصفها بأنها ' كعبته " و " قبلته " ويتوجه للقائها فى " معبد " الحب و " محرابه " ، ثم يذكر أن موته فى هذا الحب شهادة تخلّده . [٦٢] ومحمود حسن إسماعيل يقدم قصيدة " لهيب الحرمان" بقوله : [٦٣] " أسدل المحراب أستاره فنفث العابد هذه الخفقات " . ثم استهلها بقوله :

سدلتْ سِترها وقالت : رويدا ... عابدَ الحُسن ، واتئد فى صَلاتكْ

وظل طول القصيدة يستمنحها من النفحات ومن النور المقدس ما يضيء حياته ويفجر ينابيع السعادة فى نفسه . وإذا كان محمود حسن إسماعيل قد وصف بيت محبوبته بـ " المحراب " ووصف نفسه بـ " عابد الحسن " ووصف مناجاته بأنها " صلاة " ، فإن حسن كامل الصيرفى يصف أناشيده التى يصوغها لمحبوبته بـ " التسابيح تُتلى فى قدسيّة لحرم " [٦٤] ، بينما كان مصطفى عبد الرحمن أكثر خشوعا وتقديسا ، حين لم يكتف بما حاط غيره المرأة به من هالات القداسة ، فقال لها : [٦٥] .

أنتِ نور الله يهدى الحائرين
لجمال الحق والصبح المبين
وأنا التائه فى دنيا الهوى
فابعثى نورك يهدى الحائرين
... الخ .

وهذا دأب مصطفى عبد الرحمن كلما وصف الحب . يخلع عليه من القداسة ما يحوّله إلى عقيدة تهدى الإنسان وتبارك خطاه : (٦٦)

فخذنى إليكَ على زورقٍ بعيداً بعيداً عن الضفّةِ
يباركه الحب أنّى يسيرُ ويحميه من عاصف اللّجةِ

وهكذا يتحول الحب عنده إلى قوة روحية هادية لا نزغة شيطان يخشاها الناس ، ويصبح توجّها مشروعا مُحلّلا لا شُبهة للحرام فيه : (٦٧)

فنارُك يا حب نور الحياة بـه جُنّ قلبٌ ورغنّى فمُ
فأنت السماح وأنت الصباحُ يعانقنا نورك الملهمُ
وأنت الشباب شباب الوجودِ وأنت الحلال الذى حرّموا

فإذا كانت هذه هى نظرة الرومانسيين إلى المرأة التى يحبّون : يرونها

إشراقاً جديداً لنفوسهم ، ونورا مقدسا يهتدون به من ضلالهم وتيه أرواحهم ، فلابد أن ينكروا المجتمع الذى ينكر عاطفتهم ، على ما هى عليه من نقاوة وطهر ، واتساق مع جوهر القوانين والشرائع والأعراف ، التى أريد بها تكريم الإنسان والسمر بروحه .

خصوصيّة الحب الرومانسى

تحدثنا فيما سبق عن إحساس الرومانسىّ بالحب ، ضرورته للحياة ، وما يفجّره فى النفس من ينابيع أمل جديدة تدفعها بقوة إلى الغد . وذكرنا أيضاً أن العاشق الرومانسى حين يُفجَع فى حبّه بهجر حبيبته أو بموتها ، يلتمس فى الموت خلاصا مما يعانى من خواء النفس وعذاب الروح .

وهذه الظاهرة من أهم سمات " الخصوصيّة " فى تعلّق المحبّين . ولو أن العاشق أحسّ فى هذه الحال قبول نفسه لأن تستعيض بأخرى ، لاستبقى أملا يعيش به ، لكن الفراغ الحادث لا يُملأ ، والروح الثكلى لا تستعيض ، عقدت نفسها على " التوحيد " ، لا تتحوّل ولا تتنقّل : (٦٨)

أليلايَ ، حبى فيكِ حبُّ مُوحَّدٍ ... تنزّه عن ريْب وجلّ عن الشركِ
تبقّـى بقاء القلب ينبض دائما ... وليس لسلوان وليس إلى تركِ

ولئن كان ناجى هنا قد ربط عقيدته فى التوحيد بحياته ، وهو ما يقدر عليه ، فإنه وغيره فى مواطن أخرى ، يمتدون بمعنى التوحيد إلى ما بعد الموت ، حين يتمنون أن يَجمع كُلاً بإلفه قبرٌ واحد ، فينتهى معه كما بدأ به . وهناك مَنْ لا يقنعون بمقولة التوحيد فى عاطفة الحب ، لأنها تعنى - مهما عظمت دلالتها على الإخلاص - أن ذات المحبوب وروحه ، كيان آخر مستقل غير ذات المُحب ، فنرى هؤلاء يتحدثون عن امتزاج الأرواح بمثل ما يتحدث الصوفيون عن الاتحاد والحلول . أو يصفون هذا الامتزاج كما وصفه بعض الفلاسفة القدامى ، حين

ذهبوا إلى أن الله تعالى خلق كل روح على هيئة الكرة ثم شطرها ووزعها على جسدين ، فصار كل جسد يهفو إلى الجسد الآخر الذى يضم شِق روحه ، حتى صادفه لصق به : [٦٩] .

وهكذا يتحول التوحيد فى عاطفة الحب ، من إحساس قوى يدل على الإخلاص وصدق التوجّه ، إلى ضرورة وحتْم لا تصرّف للعاشق فيهما . فالروحان فى الأصل روح واحدة ، وائتلافهما جمْع للشّقين المفترقين رعودة بالأشياء إلى طبيعتها وأصلها ، ولا يمكن لأى منهما أن يطلب غير قسيمه أو يسكن إلى غير مثيله . يقول إبراهيم ناجى : [٧٠] .

مخطىء من ظن أنا مهجتان ... مخطىء من ظن أنا توأمانْ
هو شطر النفس لا توأمها ... هو منها ، هو فيها كل آنْ
نحن نبض واحد ، نحن دمُ ... واحد ، حتى الردى متحدانْ

وقد عمرت دواوين الشعر الرومانسى بالحديث عن هذه الخصوصية ووصف مظاهرها النفسية المختلفة ، فنجد ناجى يقول لمحبوبته : [٧١]

بنيتُ محرابى لم أتخذْ ... ديناً سوى حبكِ فى كل حالْ

ويصف هذه الخصوصية فى حوار بينه وبين نفسه الثائرة ، التى تأتى تهيب به أن يتحول ويلتمس عوضاً عما يلقى من إعراض وصدود : [٧٢]

هاك فانظر عدد الرمل قلوبا ونساءْ
فتخيّر ما تشاء ، ذهب العمر .. هباءْ

لكنه يردّ على ريح التمرّد العاتية بقوله :

أيها الريح ، أجل ! ، لكنّما ... هى حُبّى وتعِلّاتى ويأسى
هى فى الغيب لقلبى خُلقتْ ... أشرقت لى قبل أن تشرق شمسى
وعلى موعدها أطبقتُ عينى ... وعلى تذكارها وسّدتُ رمسى

وهو عين الحوار الذى جرى بين جميل وذويه حين طلبوا منه أن يسلو بثينة بغيرها ، مما يثبت تواطؤ العذريين والرومانسيين على معان وأحاسيس واحدة . فكل ما ذكره وَرَدَ على ألسنة العذريين : من توحيد فى شرعة الحب ، ومن كون هذا الحب قدراً لا يُدفع ، ومن كونه أيضاً ، أزلياً غير حادث . ومتى بلغ إحساس المحب هذا الحد ، كان طبيعيا أن نسمعه يقول لمحبوبته :[٧٣]

إنك لى مبدأ وعودُ منك إلى صدرك الفرارُ

وأن يقول لها فى القصيدة نفسها :

إن أنتِ أخلفتِ وعد حبى لم تؤونى فى الديار دارُ

فهى قدره وحظه ، لا يفر منها إلا إليها ، لا لأن دارا أخرى لن تؤويه كما قال ، وإنما لأن نفسه قصرت همّها عليها ، فلا تجد راحتها فى طرْق باب آخر.

ويتواصل حديث الرومانسيين فى تصوير هذا الإحساس ولا يتوقف عند روّادهم . يقول مصطفى عبد الرحمن لمحبوبته : [٧٤]

يا حبيبى ها هنا فوق الرمالِ مسرح للغيد يسبى الناظرينْ
فيقه ترتع ربّات الجمالِ فى ظلال الصفو ، فى رفق ولينْ
بيْدأنّى لم أجد فيه لعينى فى معانى الحسن من معنّى حبيبِ
طالما أنت غريب الدار عنى فأنا الظامىء فى قفر جديبِ

ويكرر هذا الإحساس فى مواطن أخرى من شعره . [٧٥] ويقول حسن كامل الصيرفى فى " أنتِ كلّهن " مثل قول ناجى ومصطفى عبد الرحمن : [٧٦]

كل حسناء أراها لا أراها .. لا أراها
غير ظلٍّ من ظلالك
حين تسرى بخطاها حين ترنو مقلتاها

حين تشدو شفتاها لا أراهـا لا أراها
غير لمـح من خيالك

.... الخ .

وفى حديثى عن سمات الخصوصيّة فى الحب العذرى ، ذكرت أن العاشق يرى المرأة التى يحب عالما كاملا مستوفيا كل شىء ، ولهذا لا يطلب وهو يعيش فيه شيئاً من خارجه . ولقد برع الشعراء الرومانسيون فى وصف هذا الإحساس وتركوا فيه كثيراً من القول . يقول إبراهيم ناجى : [٧٧] .

ولقد ترى عينى الجموع فما ترى دنيـا تموج ولا تحس عيدا
فـإذا رأيتـك كنـت أنت الناس والأعمـار والآبـاد والآمـدا
وأراك كـل الزهر ، كـل الروض ، أنت لدىّ كل خميـلة تتهادى

ولأن محبوبته عالمه الخاص وملاذه الذى يؤويه ويقيه ، لا يبالى فى رضاها عنه بالدنيا ، أى العالم الخارجى الذى انفصل عنه ، نعمت هذه الدنيا أو نقمت : [٧٨]

أيكون ذنبى أن حبّك لى من الدنيا وِقاْ
فـإذا رضيـتِ فإن نعمتَها ونقمتها سواْ !!

ويدعو محمود حسن إسماعيل محبوبته إلى رحلة بعيدة عن الناس ، مكتفيا بأفياء الحب وخيال المحبين ، عن كل ما يهتم به الآخرون من لذات الطعام والشراب وضرورات العيش : [٧٩]

فتعالىْ نغيب عن ضجة الدنيا ونمضى عن الوجود ونرحلْ
وإلى عشنا الجميل ففيه هزج للهوى وظل وسلسلْ

وهى الأمنية التى كانت تجول بنفوس العذريين وغيرهم من ذوى الحب الروحى ، وقد فصلنا القول فيها فى مدخل هذه الدراسة . [٨٠] .

ومن أخبار مصطفى الرافعى أنه انشغل بمحبوبته عن أصحابه عاما كاملا لا يراهم ولا يرونه ولا يحس بنفسه حاجة إليهم ، حتى صار ما بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغربه . (٨١) .

والرومانسى الذى يأنس بوجود محبوبته إلى جواره ويجتزىء بها عن الناس قادر أيضاً على أن يحس امتلاء نفسه بها غائبةً ، متى كان يأمل فى لقياها ووصلها . ولعله يؤثر أحياناً العزلة عن الناس ليستحضرها إلى جواره ويعيش مع طيفها ، فلا يحس وحشة ولا يشكو مللا كما يتوهم الآخرون : (٨٢)

ويسألنى ضعاف مدارك الأبصارْ
حين يرونني بالصمت ملتحفا
أهيم بنشوة اللقيا :
لماذا هكذا أنتا ؟
أتحيا العمر منفردا ،
فلا خلاّن ، لا أصحاب لاندمان ، لاسُقيا ؟
فأضحك من قصور رؤاهمو ،
ما أضيع الإنسان حين تغيب عن آفاقه إشراقة الرؤيا !
وفى أعماق أعماقى ، تفجّر نوركم وحيا
وأحضن طيفكِ المحبوبَ ، تغمرنى لطائف هذه اللقيا
وأكتم سر ما ألقاهُ ، حتى أستديم حلاوة اللقيا

بهذا يرد المحب على الناس حين ينكرون عليه عزلته وتفرّده ، لا يتخذ فى غياب محبوبته خلا ولا صاحبا ، فهم لا يفطنون إلى أنه فى عزلته ، يخلق لنفسه مع طيف محبوبته عالما عامرا ، لا يُحْوجه إلى الناس ، بل تفسده مخالطة الناس . ولا يحول اتساع الأرض بينه وبين محبوبته دون أن يرحل

بخياله إليها أو يستحضرها بهذا الخيال ، فيعيش معها فى هذا العالم الخاص ، الوجداني الأثير : [٨٣] .

لعلك تعجبين إذا التقينا ... على بيْن وقد عزّ التلاقى
ألا تدرين أن لكل صبٍ ... عيونا فى القلوب وفى المآقى
تجوب وراء من تهوى الفيافى ... فتنزح روحه والجسم باقِ

فإذا أيس هذا المحب من محبوبته وفقد عالمه الخاص الممتلىء أحس - على نحو ما وصفنا من قبل - فراغ الكون من حوله ، وإن كانت حياته عامرة بالأهل والصحب : [٨٤] .

يحن إليكِ القلب لهفان مثلما ... يحن جديب القفر للسلسلِ العذبِ
أهيم بدنيا الناس ، وهى جديبةٌ ... وإن حاط بى أهلى ورافقنى صحبى

* *

هوامش المبحث الثانى

(١) د محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، (دار الثقافة ـ بيروت ـ بدون تاريخ) ص ١٨٤

(٢) المرجع السابق ص ١٩ ـ ١٩١

(٣) أبو القاسم الشابي ـ ديوان الشابي ، تقديم الدكتور عز الدين إسماعيل (دار العودة ـ بيروت سنة ١٩٨٨) ص ١٥٠

(٤) المرجع السابق ص ٣٠٥

(٥) المرجع نفسه ص ٣١٥

(٦) إبراهيم ناجى ـ الأعمال الكاملة (دار الشروق ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٨ م) ص ٧٤

(٧) المرجع السابق ص ٣٩

(٨) عباس محمود العقاد ـ ديوان العقاد (مطبعة المقتطف والمقطم ـ القاهرة سنة ١٩٢٨ م) ص ٣٠٠

(٩) المرجع السابق ص ٣٣٤

(١٠) المرجع نفسه ص ٢٢

(١١) على محمود طه ، ديوان على محمود طه (دار العودة ـ بيروت سنة ١٩٨٨ م) ص ٣٣٣

(١٢) أحمد رامى ، ديوان رامى (دار العودة ـ بيروت سنة ١٩٨٧ م) ص ١٢٢

(١٣) حسن كامل الصيرفى ، النبع (دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٨٢ م) ص ٢٧

(١٤) إبراهيم عيسى ، شراع فى بحر الهوى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٢ م) ص ٢٦

(١٥) عبد العزيز جويدة ، لاتعشقينى(الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ١٩٨٢)ص١٨

(١٦) أحمد حسن الزيات ، رافائيل ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٣٤) ص٤٨

(١٧) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة ص ١٥٦

(١٨) ديوان الشابي . ص٢٧١

(١٩) شروح سقط الزند ج٣ ص ٩٧١

(٢٠) إبراهيم ناجي . الأعمال الكاملة ص ٢٦

(٢١) المرجع السابق ص ١٤

(٢٢) ديوان الشابى ص ٢٢٦

(٢٣) إبراهيم ناجى . الأعمال الكاملة . ص ٩٦

(٢٤) ديوان الشابي ص ٤٠

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٧١

(٢٦) عمر أبو ريشة . لمن ؟ (دار مجلة الأديب - بيروت - بدون تاريخ) ص ١٧٤

(٢٧) ديوان رامي ١١٣

(٢٨) مصطفى عبد الرحمن . أغنيات قلب (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٧ م) ص ٨٥

(٢٩) عبد العليم عيسى . ولهذا أنا أحيا (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٧ م) ص ٨٣

(٣٠) إبراهيم ناجى . الأعمال الكاملة . ص ٣٣

(٣١) المرجع السابق ص ٦٣

(٣٢) ديوان رامى ص ١٣٨

(٣٣) ديوان رامى . المقدمة

(٣٤) حسن كامل الصيرفى . النبع ص ٢٦

(٣٥) إبراهيم ناجى الأعمال الكاملة ص ٤١

(٣٦) المرجع السابق ص ٥١

(٣٧) أبو تمام . الوحشيات ص١٨٧

(٣٨) أحمد شوقى . مجنون ليلى (المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة بدون تاريخ) ص ١٢١

(٣٩) أحمد شوقى الشوقيات ج٢ ص ١٧٨

(٤٠) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة ص ٤١

(٤١) ديوان الشابي ص ١٩٧

(٤٢) المرجع السابق ص ١٩٨

(٤٣) المرجع نفسه ص ٢٣٠

(٤٤) المرجع نفسه ص ١٦٠

(٤٥) ديوان الخليل ج٢ ص ٥٧

(٤٦) ديوان الشابى ص ٢٧

(٤٧) المرجع السابق ص ٢٦٧

(٤٨) ديوان رامى ص ١٤٨

(٤٩) ديوان المتنبى ج٣ ص ١٤٩

(٥٠) كامل أمين ، مصباح في الضباب (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ١٩٨٢) ص ٤٠

(٥١) الأغاني ج١١ ص ١٧٩

(٥٢) ليكون الحديث موضوعياً ، أقرر أن الرومانسيين ليسوا جميعا على درجة سواء فى ذلك، غير أن أكثرهم قربا من جسد المرأة لا يهتم بذكر تفاصيل جمالها الحسى على نحو ما نجد عند المحافظين . ولعل علي محمود طه أكثر الرومانسيين خلطاً بين هيام الروح واشتهاء الجسد . ولعل قوله عن نفسه :

حياتى قصة بدأت بكأس لها غنيتُ ، وامرأة جميله

خير ما يصف الطابع العام لشعره ، الذى تسرى فيه دماء عشاق الجسد وشهواتهم ، ويلتهب بالحديث عن صبواتهم الحمر . انظر ديوانه ص ٢٨٨ ، شرق وغرب نشر دار إحياء التراث بالقاهرة سنة ١٩٤٧ و ص ٣٤ ، ٤٢

(٥٣) ديوان الشابى ص ٥١

(٥٤) المرجع السابق ص ٣٠

(٥٥) المرجع نفسه ص ٣٠٣

(٥٦) ديوان أحمد رامى ص ١٦٠

(٥٧) المرجع السابق ص ١١٧

(٥٨) إبراهيم ناجي ، الأعمال الكاملة ص ٩٩

(٥٩) د. محمد غنيمى هلال ، الرومانتيكية ص ١٨٤

(٦٠) المرجع السابق ص ١٩٠

(٦١) ديوان الشابى ص ٣٠١

(٦٢) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة ص ١٤٦،١٦٤،٥٥،٥٦

(٦٣) محمود حسن إسماعيل ، هكذا أغنى ص ١١٤

(٦٤) حسن كامل الصيرفى ، النبع ص ٧٤

(٦٥) مصطفى عبد الرحمن ، أغنيات قلب ص ٧٧ . ويقول ناجى لمحبوبته :

وعلى جناحك أو جنا ... حى قد رقيت إلى الصفاء

إن كان حقا أو خيا ... لا فهو وثب للضياء

وتجرد مما جنا ... ه طين آدم فى الدماء

أيكون ذنبى أن جعلتك فوق عرش من سناء

وجثوت فى محراب قد ... سك عابدا هذا الرواء

كما يقول :

يأيها الحب المقدس هيكلا ... ذاق الردى من عابديك مسبّحُ

كثرت ضحاياه وطال قيامه ... وصيامه فمتى رضاك تمنحُ

الأعمال الكاملة ص ٥٥ ، ص ١٦٤

(٦٦) مصطفى عبد الرحمن ، أغنيات قلب ص ١٣

(٦٧) المرجع السابق ص ١٤٧

(٦٨) إبراهيم ناجي ، الأعمال الكاملة ص ٧١

(٦٩) الراغب الأصفهانى ، محاضرات الأدباء ، ص٢٣

(٧٠) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة ص ٨ـ

(٧١) المرجع السابق ص ٥٣

(٧٢) المرجع نفسه ص ٤٣

(٧٣) المرجع نفسه ص ٣٦

(٧٤) مصطفى عبد الرحمن ، أغنيات قلب ص ٧٣

(٧٥) المرجع السابق ص ١٣٩

(٧٦) مصطفى عبد الرحمن ، النبع ص ٦٤

(٧٧) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة ، ص ٩٨

(٧٨) المرجع السابق ص ٥٦

(٧٩) محمود حسن إسماعيل ، هكذا أغنى ص ٢٢٣

(٨٠) انظر ص٣٢

(٨١) مصطفى صادق الرافعى ، رسائل الأحزان ص د

(٨٢) عبد المنعم عواد ، هكذا غنى السندباد (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ١٩٨٢) ص ١٢

(٨٣) كامل أمين ، مصباح فى الضباب ص٤٥

(٨٤) مصطفى عبد الرحمن ، أغنيات قلب ص ٩١

**